

الدكتور رضا توفيق

تراؤه في السلافة ، وشكل الحكومة ، والحربة ، والديمقراطية ، والاربيترتراطية ،
والنقن والشعر ، والنقن والطبيعة ، والنسفة

لدلياس ابو شبح

ليس من السهولة في تيمو أن آتي - في هذه الصفحات اقليلة من المقتطف - على جميع المراحل التي جازها صديقي الكبير الفيلسوف الشاعر الدكتور رضا توفيق بك في حياة طويلة طائفة بمجلائل الاعمال وألوان الاضطراب ، فالأقدام على عمل كهذا يستغرق وقتاً طويلاً ومجملات ضخمة لان حياة هذا الرجل إنما هي ملحمة كثيرة الوقائع ، متعددة الصور ، تبدأ عند اعلان الحرب بين تركيا وروسيا ، تلك الحرب الطاحنة التي كانت نتائجها وخيمة على مسقط رأس الشاعر ، وتنتهي - وقد لا يجوز لنا ان نهيبا - في مطلع الثلث الثاني من هذا القرن العشرين

ولد الدكتور رضا توفيق من أب تحدر من سلالة ألبانية فكان آخر عقب من اولئك الفرمان الاشداء الذين نشأوا في الجبال فاستمدوا الصلابة من الصخور والصرافة من الطبيعة التي لا تتصنع ولا مسافة في أن الشاعر ورث عن أجداده التحصين بعض خلال لا يزال يحترها وبعض حضرات كانت شتوماً عليه في حياته السياسية ، على أن هذه المنبوات المزعومة تقرم على فضائل جبيلة كتعشق الاستقلال المنطلق ، والتمرد على كل سلطة لا تدعمها طائفة احترام للرب الانسانية . وكانت أمه شركسية نمت إلى قبيلة « شابصيح » المتحدرة من القفقاس ، وقد يكون الدم التركي المتشفي في عروق الشاعر متصلاً به من جدته لاييه ، وهي تركية من مكدونيا

فهذا الخفيط في الدم يجمكتا تجاري الشاعر في إنكاره النظرية القائلة بنقاوة النسل ، وهي ضلال فطخ تكاد عدوله تغمر هذا القرن العشرين الداهل المضطرب ! ... فهو يذهب إلى إن نقاوة النسل إنما هي نظرية خلقت لدعم جنسية مصطنعة لتبرير سلطان متهد هو ينبوع جميع ألقن التي تهدد السلام العالمي . نسمة طائفة من العلوم كالتاريخ والانثولوجيا والانثروبولوجيا وغيرها تبرهن على أن البشر الحاليين قد جيلهم حروب متواصلة منذ عشرات من القرون ، وأن العوامل التي تجعل من شعب أمة متفوقة إنما هي عديدة ، ولا يخفى أن تنازع الشعوب إنما هو أهم هذه العوامل واضدها تأثيراً . فالشعب اليوناني القديم ، وهو أبلغ الام التي درجت على سطح هذه الكرة وأكثرها تفوقاً من ناحيتي الثقافة والخلق ، كان مزيجاً من شعوب مختلفة ، وفي هذا برهان واضح على خطأ النظرية القائلة بنقاوة السلافة

ولنعد الى الدكتور رضا توفيق فنقول انه ولد في « جسر معطن باشا » وهو مدينة صغيرة تقوم على ضفاف مرجح - وقد اصبحت اليوم مدينة بلغارية معروفة باسم « ساربرود » - في ٢٣ رمضان ١٢٨٣ الموافق للعام ١٨٦٨ ، ولما بلغ السابعة من عمره جاء به والده الى اسطنبول ، وكانت الحرب بين تركيا وروسيا على وشك الانطلاق ، فأتبع له ان يمهّد تلك الحوادث المشؤومة التي كانت وبالاً على تركيا ، ولا يزال يذكر خلق السلطان عبد العزيز والسلطان مراد الخامس وجلس عبد الحميد على العرش وغير ذلك من الحوادث الخطيرة

وفي أثناء تلك الحوادث كان الشاعر منصرفاً الى الدرس في قلب الطبيعة التي اوحى اليه تعشقها ولا مشاحة في ان الطبيعة بدأ على شاعريته التي ارتفع بها الى مستوى كبار الشعراء في تركيا . وفي العام ١٨٨٢ انتظم في المكتب السلطاني ، الا ان طبيعته الهائلة الى الاستقلال ، المتردة على كل نظام دقيق ، وعلى كل سلطة لا تمتطع ان توحى اليه بالثقة والاحترام جعلت حياته في تلك الجامعة صعبة لا تطاق . واخيراً في العام ١٨٩٠ اتهم بالانتماء الى الحكومة فألقي القبض عليه وسجن اربعين يوماً . ومنذ ذلك الحين بدأت حياته السياحة التي دامت ثلاثين سنة . على اننا لضرب صفحاً عن ذلك العهد المضطرب من حياته ، ونكتفي بأن نقول ان الدكتور رضا توفيق يعيش في البلاد العربية منذ احدى عشرة سنة مغموراً بمطف صاحب السر الامير عبدالله . وهو يقيم اليوم على ضفاف الشاطئ الوردى الضطجع عند اقدام مدينة جونية في تلك البقعة الرمادية من لبنان، المتوجة بالآكام السبع الممتدة من جبل حريصا الى طرف خليج جونية والشاخسة خصوصاً ازيلياً الى الشفق البعيد المشموج بجميع ألوان الشمس الصريحة

والدكتور رضا توفيق شيخ يدلف الى العقد السابع من العمر ، على ان الطبيعة خلعت على هيكله الجبار كل ما في وسعها فلم تستطع الايام ان تزيل عن جسده ريق الشباب . ففي عضلاته القوية ، تلك العضلات المنقولة الشبيهة بمضلات المصارعين ، وفي قامته المستطيلة كالاسطوانة ، واندلاق صدره الى الامام ، واسترسال كتفيه الى الوراء ، وفي اتران مشيته العصبية ، ولقناته السريعة المتيقظة ، في ذلك كله عناصر من الشباب الجبار تخونها شعور بيض هي اكليل السبعين جهة نافرة عالية تنظر الوجه الى شطرين متساويين أعقدت قبتها على الرأس شعراً غزيراً ترامت أمواجه الى سفح الرقبة ونهزت منها موجتان فانتشرتا مشعثين كل منهما على اذن . وفي سفح هذه الجهة المنحدرة يمسح حاجبان متسقان جيلان تطفئ نحتها مقلتان ساذجتان على ما فيهما من البريق النكي هما مقلتا الفيلسوف الشاعر ، وانك لترتاح الى تلك الاشعة الغريبة المنبعثة من وراء نظارته الذهبيتين والمنشرة شعاعاً على تينك الوجنتين المشربتين بألوان خمرة كألوان الشفق قبيل الغروب ، انك لترتاح الى ما يظفر عليها من الوجدان النير المغمور بأعذب ما في القلب البشري من زبد الرحة والحب . وأول ما يقف نظرك عليه في ذلك الرأس المردود الى السلالة العبرانية التديبة ،

او اذا شئت الى فلاسفة اليونان في عهد سقراط وافلاطون لحبة كسيفة تنحدر كانشلال الى مغرس التندوتين ثم يتجمع بعضها على بعض فتعبر الوجه هيئة نبي خرج من التوراة ، وفي حجرة هذا ازجل لا أعلم أية كذارة أم أي أوتار ساحرة يهزك منها في الكلام صوت ، عذب نشد به غنة كالتى تصدر عن رجع النحاس ، فبو اذا كلك أطربك بحديثه وصوته سماً . والفيلسوف الشاعر رضا توفيق مبسوط العلم باللغات الفرنسية والانكليزية والفارسية واليونانية والعربية

ولنتقل الآن الى آراء الدكتور رضا توفيق في الادب والاجتماع ، والاسيا المسائل المتعلقة بها باطرية والواجبات والحقوق والدين والحكومات وغيرها من المسائل التي يعبر عنها البعض بصيغ مبهمة لا يستقيم لها وزن والتي كثيراً ما تجهم عنها مجادلات عقيمة مزعجة

﴿ شكل الحكومة ﴾ لا يزال كثيرون ، منذ نحو من قرن الى اليوم ، يملقون شأننا كبيراً بشكل الحكومة حتى ان جميع الانقلابات الثورية تكاد تكون وليدة تلك العقيدة الذاهية الى ان الحكومات تتوقف على اشكالها . غير ان الدكتور رضا توفيق يخالف هذا المذهب قائلاً انه وهم محض ، وان الاختيار اظهر له في مواقف متعددة ان كل شيء يتوقف على الحرب او على السلم نشأة علاقة دقيقة بين الادارة المطلقة او المحافظة او الديكتاتورية والحروب العامة او المحلية . اما الشكل فليس سوى بطاقة او اعلان او صورة لا طائل تحتها ، ولقد قال احد الشعراء الفرنسيين ان شكل الحكومة يشغل افكار الجائنين ، ولكن افضل الحكومات هي اقلها ادارة (١)

وكان كانت وسنسر بقولان : « ان افضل الحكومات هي اقلها ادارة »

﴿ الحرية ﴾ ان كلمة «حرية» تدعو الى الالتباس كجميع الالفاظ المبهمة او كمعناها . ثم ان هناك اصطلاحين للحرية ؛ الاول هو الاصطلاح النفسي وآخر الاصطلاح السياسي الاجتماعي . ولما كانت النفسانية psychologie نوعاً من العلم الطبيعي فانها لتنعطف الى انكار الحرية ، اذ ان كل نوع من انواع العلوم يجتهد في شرح جميع العوامل التي يدرسها بأسباب من شأنها ان تحدد هذه العوامل ، اذن فجميع العلوم مجبرة بحكم المنطق على الاقتناع بأن كل حادث انما هو نتيجة اسباب عديدة لا نعرف الا بعضها

ولقد اتبع للبعض ان يزعم ان الذي اسطرح على سمعته بـ « الارادة البشرية » او « الارادة المطلقة » انما هو السبب الالهي بمحدد آمالنا ، على ان النفسانية العلمية تبرهن لنا ان الارادة نفسها ليست سوى عامل محصل من عدة اسباب نفسية فيزيولوجية لتستترك بدون علم منا في عمل دماغنا ، ولما كان العمل النفسي هو الذي يتبع لنا فرض تعديلات على الافعال المنمكة التي تسببها العوامل الخارجية فن البيديهي ان يخيل لنا اننا احرار

ولقد تناقش العلماء الملمون طويلاً حول هذه المسألة المسيرة لاجل تقرير المسؤولية البشرية

(1) La forme de l'état préoccupe les tous, Le mieux administré est le meilleur de tous

من الوجهتين الدينية والحقوقية ، وظلوا يتناشون حولها قرونًا طويلاً . ثم انقسموا الى ثلاث فئات او مدارس : (المعتزلة) وهي القائلة بالارادة المطلقة ، واصطلاحها (ان شاء ترك) و (الجبرية) او انبياع مذاهب القدر الذين كانوا يذهبون الى ان المقتدر لا يستطيع التزول على سنة التعديل . و (اهل السنة) الذين كانوا يعتقدون ان للانسان « ارادة جزئية » يستطيع معها الاختيار بين مقدورين لا مناص منهما كالتجوير والشر مثلاً . وهذا المذهب الاخير هو المعروف اليوم بمذهب « الحرية في الاختيار » وهو الذي يعتنقه الدكتور رضا توفيق بحجة ان العلم يوافق اهل السنة في مذهبهم لان الارادة المركزية هي في الدماغ

اما الحرية السياسية فهي احترام الشريعة الوضعية مع التمتع الممكن بالافعال التي لم يستدوكها التشريع المتبدد . وخلاصة القول هي خضوع اخياري لقانون يرمز الى ارادة شعب متقف ، وليس خضوعاً جبرياً لارادة سلطان او حاكم فرد اريستوقراطي كان او ديموقراطياً ، او لارادة وصولي او ديكتاتور . واما الحرية الاجتماعية فهي حق الفرد في ان لا يخضع لتقاليد بلدي بشرط ان لا يكون تمرده مخالفاً للشريعة الوضعية او للاصلاح الاخلاقي الاديبي المقرر في العالم ﴿ الديموقراطية ﴾ ذلك هو رأي الفيلسوف رضا توفيق في الحرية ، اما رأيه في الديموقراطية فيباخص بما يلي :

براد بالديموقراطية حكومة الشعب . ولكن أيستحيل ذلك ؟ لقد حصر الفيلسوف العظيم شوبنهاور هذه المسألة في برهان ذي حدين ، فقال : « انه لمن الظلم المحرم ان يحكم شعب بالرغم منه » وهذا حق على انه أضاف الى ذلك قوله : « وان الشعب ولدٌ ويظل ولداً ويحكم بالرغم منه » . وهذا يبعث على التنبؤ . الا ان القرآن - لحسن الحظ - أعطى أفضل حل لهذه المسألة العميرة ، فقد جاء فيه قول الآية : « ولقد كرّمنا بني آدم . . . » إذن فالانسان مكرم أياً كان ، ويتبني ان نحترم قيمته الانسانية التي لم يستدها لا من ملك ولا من رئيس جمهورية بل من نعمة الله نفسه الذي خلقه على صورته . ولقد اضاف النبي قوله : (سيد القوم خادمهم) واذن فأول شرط من شروط السيادة ان يكون السيد خادم الشعب الذي اولاه السيادة عليه

﴿ الاريسطوقراطية ﴾ براد بالاريسطوقراطية ، حكم الشعب بأفضل شخص بشري . على ان الاريسطوقراطية هي اليوم نوع من الامتياز الاقطاعي الوراثي يقوم على (حق النسخ) الذي لا يوفر لمدعيه جميع اغلال والفضائل التي تجعل من الرجل شخصاً متفوقاً تفوقاً حقيقياً يرفعُه الى مستوى أفضل انسان في الامة . ومثل هؤلاء الاشخاص لا يستطيعون ان يحكموا بالتدابير وأنسابهم ورفرفهم أمة بأمرها جديرة بانجاب طائفة من النوابع كما هي الحال اليوم في الامة الراقية . اذن فالاريسطوقراطية التاريخية لن يحق لها التمتع بالسلطة الوراثية في ادارة بلد ما لم تخلق نوابع . على ان نمة اريستوقراطية طبيعية لا تتمدى ككونها فردية اي اريستوقراطية نبوغ موهوب ،

كاريسطرقرانية سقراط وكانت وابن رشد في الفلسفة ، وغليلير وباستور واينشتين في العلم ، وشكسبير وجوته وهيجو في الشعر ، وبيتهوفن وجونود وفردي في الموسيقى ، وهلم جرا . ولقد جاء القرآن الكريم (وفضلنا بعضهم على بعض)

﴿ الفن والشعر ﴾ يراد بالشعر الصحيح الذي يعبر ، بلغة سليمة مألوفة والثناء موسيقي وجيه وأسلوب ذي عظمة في الصياغة ، عن بعض شواعر طارة نهر الروح البشرية هزاً عميقاً . وهذه الشواعر — ينبوع الهاماتنا البديعية التي لا تنضب — لا تتأني إلا في أوقات العوارض النفسانية التي لا علاقة لها قط بأغراض الحياة الحيوانية المادية ويرجع ذلك الى ان هزة تقسانية شديدة تثير دخيلة الرجل على حين غرة فترحب آفاقها المظلمة المتخيرة وتوقظ فيها جميع الخصاص العملية . وفي هذه الحالة من الامتنارة الداخلية يستطيع الرجل ان يرى ويميز بوضوح وجللاء عوامل العاصفة العاطفية التي تحرك روحه . عند هذا يترامى العالم الخارجي تنده لعينيه المندهلتين في اجمل صورة من تألفه ويكشف له في جميع تبدلاته المؤثرة العلاقات الحميمة التي تربطه بالوجود الكلي ربطاً لا انحلال له . فالفني الحقيقي ، وهو خالق في الصبح ، يتناول جميع مجازاته ورموزه وكنائمه من تلك العلاقات الحميمة نفسها التي تجمله دائماً يتحد في حياته والطبيعة الجميلة

وهذا الاتحاد المكين يضيء في روح الشاعر الحقيقي كما تضيء اشعة الشمس اذ يشمل الوجود بأسره ، فهو مفرق التماثل الذي يحول الحياة الاكثر دعة الى حعادة كلية فالجمال الذي يوحى الحب ليس سوى التأثير الهاديء الهويء يعالجه ذلك التألف الكلي العجيب في روحنا المسحورة . والتعريف البياني للزواج الفني انما هو بالتدقيق تلك الحاسة المتطرفة ولكن السليمة ، التي يتاح لها عند اقل داع ان تحدث في النفس تأثيرات شديدة خصبة ، فالعمل الفني شعراً كان او موسيقى او نقاشاً ما هو في التحليل الاخير سوى المادة التي تنجم عن مثل تلك الحامات البديعية بشكل من التعبير يمت الى الموضوع بصلب شديد . اما البعيرة ، ويراد بها النظر الصائب المحكم للعوامل الداخلية . فهي اظهر حالات تقسية الفن . وهذا النظر الصائب يوقر للشاعر عُدّة عمله كلها ، كالشعور والفكرة والصور الاستعارية والرموز واخيراً جميع هذه الاشياء التي تتولف عملاً فنياً والتي لا توجد كما هي في العالم الخارجي . فالفني النابع لا يبدأ بالعالم الخارجي الا الاشياء للجامعة ليستعملها وسائل للتعبير فقط تلك هي — في خطوطها العريضة — نظرية الدكتور رضا توفيق في الفن ، وهي نظرية خطيرة تجمل من السدق قاعدة الفن الاحاسية وشرطه اللازم ، وتبرهن على ان طبيعة الفن انما هي الحياة وان الفن الحقيقي يتحد مع الحياة الكلية ، ينبوع الذي لا ينضب لاي اهلام بديعي ، وريتنا اخيراً بجلاء ووضوح ان الفن انما هو غير الصناعة ، وانه ليس نة شعر قديم وحديث ، بل هناك شعراً حقيقي ومزجف ، فالشعر الحقيقي لا يتصل بالزمان ولا بالمكان فهو خالد كالنفس ودائم كالحياة الشاملة ﴿ الفن والطبيعة ﴾ الطبيعة هي مجموعة الوجود بما فيه من الشرائع المعروفة او غير المعروفة

والحركات المدركة او غير المدركة . وقد قيل ان الطبيعة هي أمرُ الصناع . صحيح ، ولكنها تعالج صناعتها أو فسّها على ما تشاء ، وجميع اعمالها حيّة . وقيل ان الطبيعة هي ينبوع الفن الذي لا ينضب . وهذا صحيح ، على ان الفن هو انساني قبل كل شيء ، فهو عمل النبوغ البشري ، ومن الهذيان أن يزعم البعض ان تمثال الزهرة ، أو تاتية ابن الفارض ، او الحمراء في غرناطة ، أو صردة من صور رقابيل ، أو نقمة من لغات يهودن هي طبيعية كالشجرة او كالزهرة

يزعم الطبيعيون أن الطبيعة هي أكل مثال ينفني للفن ان يقلده ، يزعم الخيالون انه ينفني للفن ان يتصور الاشياء تصوراً أو أن يكتشف من وراء هذه الاشياء المفكرة الجوهرية المختبئة فيها ، ويسمى الرمزيون أن يبتدوا الى الصيغة الرمزية الاكثر بلاغة وتبياناً ليتاح لهم منها التعبير مما برؤنه في الطبيعة ، إن بالريشة وإن بالقلم او بالقطعة الموسيقية . وهلمّ جراً

كل هذا حسن ، على ان الشاعر رضا توفيق لا يرى في هذا كله سوى تعبير عن شواجر بدعية ليس لها أقل علاقة بالنفس او بالحياة الداخلية . وقد قال : « إني لا أؤثر أن اعتبر بأبيات من الشعر وإنشاء سليم ليس عن طلوع الشمس او مغيبها مثلاً بل عن الشعور القوي الذي يوحيه اليّ مشهد الشمس الجليل . فهذا التعبير اكون قد أتيت على تبيان حائي النفسية وليس على تبيان حالة الشفق والمناظر عند طلوع الشمس او مغيبها » إذن فالطبيعة النفسية هي التي تمثل دور الفني وليس الطبيعة الاقضية التي ليست سوى تأمل او سبب من اسباب التهييج

الفلسفة) يذهب الدكتور رضا توفيق هذا المذهب الشائع وهو ان الفلسفة علم يبحث في ايجاد نظريات حول المسائل التي تطرحها معميات الحياة على ذكائنا المذهور . وهي ايضاً فن يستعمل لبناء مذهب عقلي على نظريات مختلفة . اذن ليست الفلسفة علماً دقيقاً بل هي تاريخ الافتراضات البشرية حول اسرار الوجود . واذن فهي محاولة خامسة او نوع من انواع التولية العقلية ولكن عند ما نشر بحجة مائة الى تقرير تصرفاتنا في الحياة بمبدأ عقلي تصح الفلسفة وهي أخت المنطق وترتفع الى مستوى الجدل

كان الاغريق يفصلون الفلسفة عن الدين ويذهبون الى انها علم معرفة السعادة ، على اهم لم يستطيعوا الاتفاق على طبيعة السعادة . ويقول الدكتور رضا توفيق ان السعادة انما هي عقيدة او حالة نفسية لا علاقة لها بالفلسفة ، وما عدا ذلك فهو يعتنق مذاهب كبار الفلاسفة وعلى الخصوص مذهبي ارسطو وزردشت ، النبي الفارسي القديم

تلك خلاصة الآراء التي استطعت ان اكشفها في الشاعر التركي المنفي خلال الاحاديث المتناينة التي تتداولها في كل ساعة . وهي في معظمها آراء وحيية لها وزنها الادبي وقيمتها ، فضلاً عن انها تشير اشارة واضحة الى عقلية وروحانية ناضجتين لا نلس مثلها بين ادبائنا ومفكرينا

بيروت

الأندرا